دور منهجة الفكر في بناء الثقافة وترشيد الظاهرة الاجتماعية

الباحث
السيد سعد شريف البُخاتي
اكاديمية الحكمة العقلية – قم- ايران

مقدمة

تُعدّ حركة الفرد البشري وسلوكه، وما يحمله من رؤى وأفكار، النتاج الطبيعي لثقافته ومعارفه والتقاليد والأعراف التي نشأ عليها، فإن هذه بمجموعها هي التي تبلور شخصيتَه، ومنها ينطلق بكل تحركاته الفكرية والسلوكية.

ومن هنا نجد الحضارات والأمم المتمدنة تحاول أن تصلَ إلى أهدافها من خلال صياغة ثقافة ومعارف شعوبها على وفق تلك الأهداف، بحيث تسيّرهم بحالة انسيابية، ومن دون تصادم حتى تسير الأمة نحو الهدف طوعا وتشوّقا.

وهناك شواهدُ كثيرة على ذلك تسجّله هذه الدراسة في طياتها كأمثلة من الأمم السالفة والأمم المعاصرة.

وأخذا بهذا السبيل العقلائي يحق لهذه الدراسة أن تطرح أهدافها وسؤالها الرئيس؛ لتحدّد الأهداف التي تسعى إليها أمتنا الإسلامية والعربية، وما هي الوسائل المتبعة في تحقيق ذلك؟ فهل كانت المناهج الدراسية لها دورها في تحقيق الهدف المنشود؟ أم أن مناهجنا غائبة عن تحقيق الطموح؟!

الهدف الذي تسعى إليه هذه الدراسة، هو: بيان أسس النهوض بالأمة وأبنائها على مختلف المجالات والمستويات، وعلى رأسها الواقع المعرفي؛ لأنه الأساس الذي يبتني عليه كل تقدم، ومنها بل من أهمّها إيجادُ الموازنة بين ما يعتقده الفرد المسلم وبين سلوكه وطموحه وتحركاته، وتخليصه من حالة الازدواجية المقيتة التي تلفّه بظلامها الدامس؛ وذلك بمدّ الجسور الطبيعية المتّفق عليها بين المعتقد والسلوك من خلال بيان قوانين التفكير ومناهجه.

كما عليها أن تأخذ بكل المناهج وتوظّف كل في مكانه، من دون إقصاء لبعض على حساب البعض الآخر، بحيث يتمكن من الإفادة من جميع المناهج التي زُوِّد بها، فيُربّى الجيل على مناهج دراسية تتناسب مع المرحلة التي يعيشها الطالب.

- منهج البحث في الدراسة: اتبعت في تحقيق محتوى هذه الدراسة على جملة من المناهج:

١. المنهج التحليلي والنقدي.

٢. المنهج الاستقرائي.

٣. المنهج المقارن.

الإطار النظري للدراسة

١- مفهوم المنهج :

المعنى اللغوي للكلمة: (طريقٌ نَهْجٌ: بَيِّنٌ واضِحٌ، قال أبو كبير : فأَجَزْتُه بأَفَلَّ تَحْسَبُ أُثْرَه ❖ نَهْجاً، أَبانَ بذي فَرِيغٍ مَخْرَفِ ، والجمعُ نَهجاتٌ ونُهُجٌ ونُهوجٌ والمِنهاجُ: كالمَنْهَجِ.

وفي التنزيل:(لكلٍّ جعلنا منكم شِرْعةً ومِنهاجاً. وأَنْهَجَ الطريقُ: وضَحَ واستَبانَ وصار نَهْجاً واضِحاً بَيِّناً)[١].

وجاء في كتاب العين: (طريق نهج: واسع واضح، وطرق نهجة .

ونهج الأمر و أنهج - لغتان - أي: وضح. ومنهج الطريق: وضحه. والمنهاج: الطريق الواضح. قال: وأن أفوز بنور أستضئ به ❖ أمضي على سنة منه ومنهاج)[٢] ، وعن الأصمعي النهج: الطريق الواضح البين[٣].

٢- الفكر

عرفه صاحب الصحاح بقوله: التفكر: التأمل. والاسم الفكر والفكرة. والمصدر الفكر بالفتح[٤].

وفي معجم مقاييس اللغة: (فكر) الفاء والكاف والراء تردد القلب في الشيء يقال تفكر إذا ردد قلبه معتبرا، ورجل فكير كثير الفكر[٥].

وقال ابن منظور: الفَكْرُ والفِكْرُ: إعمال الخاطر في الشيء؛ قال سيبويه: ولا يجمع الفِكْرُ ولا العِلْمُ ولا النظرُ، قال: وقد حكى ابن دريد في جمعه أفكاراً. والفِكْرة: كالفِكْر وقد فَكَر في الشيء وأفكَرَ فيه وتَفَكَّرَ بمعنىً. ورجل فِكِّير، مثال فِسِّيق، وفَيْكَر: كثير الفِكْر[٦].

وأما بحسب مصطلح المناطقة فهو قريب من هذا المعنى، حيث عرفه العلامة المظفر رحمه الله في منطقه بقوله:

المقصود منه: إجراء عملية عقلية في المعلومات الحاضرة لأجل الوصول إلى المطلوب ... وبتعبير آخر أدق: إن الفكر هو: حركة العقل بين المعلوم والمجهول[٧].

بينما عرفه الشيخ معن في النظرات بأنه: الصورة الذهنية التي يحملها الإنسان عن الواقع الخارجي عن الكون، أصله، ونشأته وتطوره ونهايته، والحياة ومعناها والمجتمع وقوانينه ودور الإنسان في هذه الدنيا .. ومسؤوليته فيها وصلة الله تعالى بالعالم .. إلى آخر ما هنالك من موضوعات يتعلق بها الفكر الإنساني، والفكر هو أحد أجهزة الشخصية الإنسانية، التي تتفاعل فيما بينها، وتتبادل التأثير وهي (الفكرة، العاطفة، الإرادة[٨].

٣ـ الثقافة

الثقف مصدر الثقافة، وفعله ثقف إذا لزم، وثقفت الشيء وهو سرعة تعلمه.

وقلب ثقف أي سريع التعلم والتفهم[٩].

وعن الجوهري: ثقف، أي صار حاذقا فطنا[١٠].

وأما ابن زكريا فقد ذكر بأنّ: رجل ثقف لقف، وذلك أن يصيب علم ما يسمعه على استواء[١١].

وأما بحسب الاصطلاح فيعنى بها: مجموعة من الأشكال و المظاهر لمجتمع معين تشمل عادات، ممارسات، قواعد ومعايير كيفية العيش والوجود، من ملابس، دين، طقوس وقواعد السلوك والمعتقدات.

ومن وجهة نظر أخرى، يمكن القول إن الثقافة هي كل المعلومات والمهارات التي يملكها البشر.

٤- الظاهرة الاجتماعية

الظاهرة الاجتماعية كما يعرفها علماء الاجتماع هي التصرفات الإنسانية التي توجد على درجة معينة من الانتشار في مجتمع معين ووقت معين. وعليه فهي تختلف عن معنى الثقافة الاجتماعية والتي يراد بها البيئة التي صنعها الإنسان بما فيها المنتجات المادية وغير المادية التي تنتقل من جيل إلى آخر كالعلوم والفنون والقيم والعادات.

وقد عرف دور كايم الظاهرة الاجتماعية بأنها ضرب من السلوك ثابتاً كان أو غير ثابت يمكن أن يباشر نوعاً من القهر الخارجي على الأفراد، أو هي سلوك يعم المجتمع بأسره، وتختلف عن الصور التي تتكون منها الحالات الفردية[١٢].

بعد بيان ما يراد من مفردات البحث، فلندخل في الدراسة ونوضح ما نروم بيانه للقارئ العزيز، مستعينين بالله فإنه ولي التوفيق.

الثقافة ونشوء الظاهرة الاجتماعية

الظاهرة الاجتماعية هي فعل اختياري يقوم به طائفة كبيرة من الناس أو أمة من الأمم.

وبناء على ذلك فهي محكومة بقوانين الفعل الاختياري، فلا بد من معرفة أحكامه أولا حتى نعرف كيف تولد الظاهرة الاجتماعية والسلوك العام للمجتمع.

كل فعل اختياري - سواء كان فرديا أو اجتماعيا - يحتاج إلى أسبابه الطبيعية حتى ينشأ ويظهر على متن الواقع. فالفعل الاختياري يحتاج إلى إرادة الفاعل؛ فإن الفاعل المختار ما لم يرد هذا الفعل لا يصدر عنه باختياره .

كما إن الإرادة لها أسبابها ومناشؤها، وسببها هو الشوق فإن النفس الإنسانية عندما تشتاق إلى شيء ما تتحرك نحوه وكلما تنفرت منه ابتعدت عنه وتحركت بالاتجاه المعاكس. وكلما كان شوقها أشد كانت حركتها نحوه أشد وأسرع، وكلما كان تنفرها أكبر كان اجتنابها وابتعادها عنه أشد وأكبر.

وهاتان المرحلتان ليستا باختيار الإنسان فإن الإنسان يفعل باختياره ولكنه لا يشتاق باختياره ولا يريد باختياره، بل الشوق والإرادة يحصلان في النفس قهرا متى ما حصلت أسبابهما.

ومن هنا نصوغ السؤال من جديد: ما هو سبب الشوق والنفرة؟

الإنسان كائن عاقل، يبحث عن سعادته، وعن الأمور التي تحقق له الراحة والسعادة والعيش الهانئ. فهو دائما يطمح لما هو أفضل، ولا يرضى بما هو حاصل لديه ومتحقق له.

وليس هذا الحكم خاصا بطائفة معينة من البشر، بل هو شامل للجميع، فهو يشمل أشرف أبناء البشر كما يشمل أراذلهم.

إلا أن الفرق بينهم في ذلك يعود إلى رؤية كل منهما لما حوله، وما هو الكمال في نظرهما؟ وما هي السعادة التي لا بد من الوصول إليها؟

فأحدهما يرى أن الإنسان ليس إلا هذا الجسد ولا حياة له إلا هذه الدنيا، فيجب عليه بحكم العقل أن لا يخدع نفسه ويتلف وقته بالسير وراء أمور نسجتها أيدي الخيال وأنامل الخرافة، بل عليه أن يفعل كل ما يسعده في هذه الدنيا ويحقق الراحة لهذا البدن.

وعليه تكون جميع أهدافه تصب في تحقيق الراحة الدنيوية المادية المتمثلة بتوفير ما تحتاجه شهوة البطن والجنس والجاه.

والإنسان السعيد بناء على هذه الرؤية هو الذي يحصل على هذه اللذائذ ويرضي غرائزه الجسدية.

أما الصنف الآخر فيتحرك في سلوكه ضمن رؤية أخرى، حيث يعتقد بأن الإنسان ليس هو الجسد فحسب، بل هناك روح مجردة هي جوهر الإنسان الحقيقي، التي تميّز بها عن سائر الحيوانات، وإلا فإن الحيوانات لها بدن وتتمتع بما يتمتع به الإنسان في هذا الجانب، بل بعضها تفوق الإنسان في غرائزه البدنية.

ولذا فهذا الصنف من البشر لا بد أن يجمع بين راحة النفس وراحة البدن، لا بد أن يبحث عن سعاة البدن وسعادة الروح.

وبما أن هذا الصنف يعتقد ببقاء الروح بعد الموت وفناء البدن فسعادة الروح مقدمة على راحة البدن، بل الاهتمام بالبدن عنده لأنه وسيلة لتكامل الروح الباقية العاقلة المختارة، والتي هي حقيقة الإنسان، وما الجسم إلا آلة يصل من خلالها إلى مآربه، كالسيارة التي يقتنيها ليتنقل من خلالها.

وعلى هذا فمن الطبيعي سيختلف حكم العقل حينئذ فيوجب على صاحبه غير ما أوجبه على الصنف الأول، بل هنا يوجب عليه أن يبحث عن سعادة النفس، وما هي الأمور التي يجب أن يحققها لضمان سلامتها في الحياة الأخرى بعد انتقالك من هذه الدنيا.

والخلاصة التي نريد أن ننتهي إليها هو أن الشوق يتأثر بعامل آخر متقدم عليه، وهو الثقافة التي يتغذى عليها العقل.

فالثقافة لها دور كبير في تحديد نظرة الإنسان إلى الأمور، وإلى جمالها، فلعل بعض أفراد البشر ينظرون إلى فعل معين على أنه جميل، بينما يرى آخرون أنه قبيح.

فالإنسان المادي غير المؤمن يرى سفور المرأة وابتذالها وتهتك الشباب وبعض الأفعال والتصرفات أشياء جميلة؛ لأنها تحقق له. بينما يرى المؤمن ذلك قبيحا؛ لأنها تسبب له الشقاء والابتعاد عن السعادة.

عليه فالثقافة تولّد الشوق، والشوق يولد الإرادة التي هي العلة الأخيرة لصدور الفعل. وكلما كان الشوق أشد كانت الإرادة أصلب وأكبر.

ولكن وقبل كل شيء لا بد أن نتعرف على حقيقة الثقافة، وهل باختيارنا أم هي الأخرى ـ كالشوق والإرادة ـ ليست باختيارنا؟

قد تقدم أن الثقافة هي عبارة عن مجموعة الأعراف والتقاليد والعقائد (الدين) التي يحملها الفرد أو المجتمع.

وهذه الأمور ليست خارجة عن اختيار الإنسان، فللإنسان أن يعتقد ما يشاء، كما له أن ينتمي إلى التقاليد والأعراف التي ينجذب إليها. نعم قد لا يستطيع أن يغيّر أعراف وتقاليد ومعتقدات المجتمع أو أن يخالفه، ولكن بإمكانه أن ينأى بنفسه عن هذا المحيط أو ذاك فلا يكون محكوما لها.

فالإنسان بإمكانه أن يبني صرحه الثقافي بنفسه وبكامل اختياره أو أن يتركه للعشوائية أو للغير فيملأه له.

وبذلك ننتهي إلى أن الثقافة هي مجموعة أفكار يعتنقها الفرد وتكون بمثابة النظارة التي ينظر من خلالها للأشياء فيراها جميلة حسنة أو قبيحة بسبب تلك النظارة الثقافية.

فهي منشأ الشوق وسببه، والشوق منشأ الإرادة وسببها. وبسبب الإرادة يصدر الفعل، وتتشكل الظاهرة الاجتماعية.

اهتمام الأمم المتحضرة بالثقافة

تعيش بعض الأمم وهي لا تعي ما يدور حولها، وما يخطط لها، ولا تعرف ما ستصل إليه في مستقبل أيامها، بل تجدها ترغب في أمور فلا يساعدها الحظ في الوصول إليها، فهي في قنوط يقتل الكثير من قابليات أبنائها وإبداعاتهم.

بينما نلحظ على الجانب الثاني بعض الأمم تعرف ما تريد، وكيف تصل إلى ما تريد، بل هي تخطط لغيرها ليكون في مستقبله أداة لها يعمل ما تريده منه.

وما ذاك إلا لأن هذا البعض عرف قيمة الثقافة وكيفية بنائها لتكون عونا له في مسيرته، لا أنه يسير في اتجاه وثقافته تسير بعكس باتجاهه.

وهذا هو ديدن الأمم المتقدمة حضاريا قديما وحديثا.

فإن أسبرطة اليونانية لما هُدِّدت بالعدوان الخارجي استطاعت أن تخرج من محنتها بواسطة السيطرة على ثقافة شعبها من خلال المناهج الدراسية التربوية التي كانت تصوغها على وفق هذه الغاية، فوضعت منهجا تربويا يهدف إلى زرع روح الشجاعة والبسالة في الدفاع عن الوطن في نفوس الناشئة، والاهتمام ببناء أجسادهم على أساس القوة والمهارة القتالية منذ الصغر؛ ليستعدوا للدفاع عن وطنهم أسبرطة.

وهكذا نجد للمنهج التربوي حضورا ملحوظا في حضارة جارتها أثينا التي كانت تهدف للأخذ بيد أبنائها نحو العلم والآداب والفنون، فصاغت مناهجها على وفق ما تؤمن به من ثنائية الإنسان وتركبه من الروح والبدن، فلا بد من تغذيتهما معا لتحقيق السعادة له. وهذا ما سجّلته ـ أيضا ـ الدول المستعمِرة في برنامجها التعليمي الذي قدّمته لأبنائها تارة، فضمنته روح الانتماء للوطن والتعايش واحترام الآخر مهما كانت انتماءاته، وما قدّمته من مناهج تارة أخرى لأبناء مستعمَراتها، فضمنته من التبعية والتفرقة والطائفية، رغم كل المشتركات بينهم.

ويمكن أن نستفيد من التجربة اليابانية كشاهد على ما ندعي، فللقارئ أن يرجع إلى تجربة اليابان في بناء دولتها الحديثة وكيفية تعاملها مع عنصر العلم والمعرفة والثقافة.

شروط بناء الثقافة

لا يمكن أن يبنى صرح الثقافة ـ وهي بهذه الأهمية ـ بشكل فوضوي ارتجالي، بل لا بد أن يكون وفق موازين مبتنية على أسس علمية بخطوات رصينة.

فالثقافة كسائر الحوادث لها شروطها وخصائصها، فمن أراد الإسهام في بناء المشروع الثقافي عليه أن يطلع بدقة على جميع ما له دور ودخالة في ذلك.

وليس هذا فعل شخص بمفرده، بل لا بد من اجتماع نخبة من العلماء والمفكرين لعقد جلسات وندوات علمية حوارية لدراسة شروط هذه المفردة وكيفية تطويرها، وما هي الآليات اللازمة لتفعيلها.

ومن جملة الشروط التي على الباحثين مراعاتها من أجل بناء الصرح الثقافي لأي أمة من الأمم، هي:

١ـ الدراسة الميدانية الدقيقة لمعرفة المبادئ والمعتقدات والتقاليد والأعراف المتجذرة في ذلك المجتمع.

فإنه لكل مجتمع خصائصه وطباعه التي تميّزه عن غيره من المجتمعات، فلا يمكن أن نأتي بتجربة نجحت في مجتمع ونقوم بإسقاطها على مجتمع آخر؛ لأن خطوات هذه التجربة قد تتقاطع مع بعض الأعراف والتقاليد أو العقائد لذلك المجتمع مما يدفع بأبنائه لمواجهتها فتوأد في مهدها، فلا ترى النور ويكون مصيرها إلى الفشل.

فعلى الباحث الذي يريد الإصلاح الثقافي أن يقوم بخصائص المجتمع، وكيفية التعاطي معه؛ لتكون حركت انسيابية تشتمل على عنصر الجذب. فالمجتمع الذي يعتقد بحرمة الخروج على الحاكم لا يمكن أن تدعوه إلى الثورة بشكل مباشر، ما لم تغير عقيدته بحرمة الخروج على الحاكم الظالم.

٢ـ رصد الظواهر الاجتماعية

في كل أمة تولد ظاهرة اجتماعية أو مجموعة ظواهر، فلا بد من رصدها ومن ثم تمييز الظواهر الإيجابية والسلبية منها، وعلى وفق ذلك توضع الخطط لبناء الثقافة. فعلى الباحثين

أن يعرفوا ما هي الظاهرة التي يجب تقويتها وتجذيرها في المجتمع، وما هي الظاهرة السلبية التي يراد اجتثاثها من الأمة.

كما عليهم أن يرصدوا عدد الظواهر الإيجابية والسلبية وحجمها، ومقدار تجذرها في المجتمع، فإن جميع ذلك له دخل في رسم الخطة لبناء الثقافة الاجتماعية.

٣ـ معرفة أسباب الظاهرة

ذكرنا فيما سبق أن الظاهرة الاجتماعية عبارة عن فعل اختياري ناشئ عن أسباب طبيعية، فهو ناشئ عن الإرادة الناشئة عن الشوق الذي ينشأ بدوره عن مجموعة أفكار ومعارف ، فيجب أن توضع اليد على تلك الأفكار والثقافات لدراستها وإيجاد الحلول الإجابات العلمية لها؛ لمعرفة صحتها من سقمها، ومن ثم بيان حسنها أو قبحها، صحتها أو بطلانها بشكل علمي صحيح.

وهذا الأمر يجعل الباحث على دراية تامة من أسباب الظاهرة مما يسهل عليه أمر ترسيخها أو التخلص منها.

فظاهرة الرجوع إلى السحرة والمشعوذين في مجتمعاتنا إذا كان سببها هو الخوف من تبعات موهومة رسخوها في أذهان الأمة، فهنا يسهل رفع هذه الظاهرة من خلال بيان عدم وجود هذه التبعات، وأن هذه الأمور قد توصل العلم الحديث لمعالجتها بطرق علمية ناجحة.

وهكذا فمعرفة الأسباب يذلل الكثير من الصعاب، ويساعد كثيرا في رسم خطة مميزة لبناء ثقافة اجتماعية متزنة.

٤ـ تحديد البدائل العلمية والخلقية التي يراد إيجادها في المجتمع.

ليس من الصعب نقد الظاهرة الموجودة، ولكن المهارة تكمن في إقناع الآخر بأن البدائل ممكنة ومتوفرة ويمكن الوصول إليها.

فالكثير منا يعرف أن طرق التعليم أو المناهج الدراسية ليست بالمستوى المطلوب، ولكن من الذي أتعب نفسه لإيجاد البدائل المرضية التي تحقق الأهداف ويمكن أن تحل الأزمة التعليمية.

فعلى الباحث أن يكون ناقدا بنّاءً، فليس غرضه الهدم بل غايته وهدفه البناء والترميم.

فبعد معرفة الظاهرة وتشخيص كونها سلبية، وبعد معرفة أسبابها لا بد أن نتعرف على البدائل. فكثير من الأمور تزول بمجرد ترويج بدائلها.

فمن يعرف أن ظاهرة العلاقات الجنسية اللا مشروعة متفشية في المجتمع، ويعرف أن سببها عدم الإشباع الغريزي لحاجة الطرفين بالسبل المشروعة، فإن مجرد هذا لا يكفي للقضاء على المشكلة، وإن كان له دور كبير في الاقتراب من الحل، ولكنه لا يقضي عليها ولا يعد حلا لها.

بل لا بد من طرح البديل المشروع وترويجه بين أبناء المجتمع ليحل محل الطرق غير المشروعة.

٥- إيجاد أفضل السبل والآليات الموصلة إلى الأهداف.

بعد توفر الخطوات السابقة بأجمعها لا يكتفي الباحث المصلح، ولا يصل إلى بغيته، بل عليه أن يبذل قصارى جهده لمعرفة أفضل السبل وأتقن الآليات لتسويق مشروعه.

فرب سبيل وآلية تفلح في مجتمع لظروف معينة، بينما تتقهقر وتفشل في مجتمع آخر لاختلاف الظروف.

كما يمكن أن تكون آلية معينة تنفع في مرحلة، ويجب استبدالها في المرحلة التالية لها؛ بمعنى أن الاستفادة من السبل والوسائل قد يكون مرحليا، فيستفاد من جميع الآليات ولكن في مراحل مختلفة. فلا بد من معرفة كل وسيلة، وفي أي مرحلة يستفاد منها.

السبل المقترحة لبناء الثقافة

تقدم أن الثقافة تمثّل قاعدة عريضة ومهمة لنشوء الظواهر الاجتماعية (الإيجابية والسلبية). ومن هنا لنبدأ بعملية تحليل الثقافة إلى عناصرها الأولية وكيفية نشوئها.

الثقافة هي مجموعة الأفكار المتراكمة في الذهن، سواء كان منشؤها الدين أو العرف أو العلم أو أي شيء آخر.

وإذا كان كذلك فلا بد من وضع ميزان لمعرفة الصحيح والسقيم منها، ومن دون ذلك فإن مآلنا إلى الاختلاف وفي وجهات النظر، ومن ثم الفشل؛ إذ قد يعتقد شخص بصواب

فكرة ما بينما يعتقد الآخر ببطلانها، فلا يحصل التوافق على إنجازها. وهذا الاعتقاد أو ذاك إنما هو نتاج التفكير، فتفكير الأول أوصله إلى الاعتقاد بصحة الفكرة بينما أوصل الثاني تفكيره إلى بطلانها.

وعليه فلا بد من التساؤل: هل التفكير الذي هو ميزة الإنسان له قانون يحده ويقنن له حركته أم لا؟

لا يمكن أن يترك هذا الفعل المقدس في الإنسان يتخبط في حركته من دون قانون.

ومن هنا نجد المفكرين والعلماء قديما وحديثا يبذلون قصارى جهدهم لصياغة قانون التفكير.

فبعض يرى قانونه القياس وآخر يرى التجربة وثالث يرى شيئا آخر. مما يعني أن الجميع يشعرون بأهمية تقنين هذا الفعل حتى تكون نتائجه صحيحة ونافعة.

والاتفاق على هذه النقطة المحورية شيء مهم ونافع. ولكي لا نطيل الحديث في إثبات طريق ما، لنرجع إلى الأشياء المحيطة بالإنسان والتي يريد العلم بها والتعرف عليها.

عندما نرجع إلى ذلك نجد أن بعض الأشياء محسوسة، وهي الأشياء التي لها لون وشكل أو صوت أو طعم أو رائحة أو ملمس ما، فيمكن للإنسان أن يتعرف عليها بواسطة الحواس الخمسة؛ ولذا سميت محسوسة.

وبعض الأشياء ليست كذلك وليس للحس سبيل لمعرفتها؛ فهو عاجز عن إدراكها ولذا سميت غير محسوسة.

كما أن معرفة الأشياء المحسوسة على نحوين، فتارة يراد معرفتها بنحو جزئي، بمعنى أن هذا الشيء ما لونه وما شكله وما صوته، وما إلى ذلك، فيتوسل الإنسان بالحس لمعرفتها ومن ثم يحكم عليها بعقله.

وتارة يراد معرفة الأشياء المحسوسة بنحو كلي، بمعنى أن العقل يريد أن يتعرف على القوانين الحاكمة على هذا الأشياء المادية، فيلجأ إلى التجربة لتعينه في معرفة ذلك.

أما الأشياء غير المحسوسة فيختلف الحكم فيها، فبعضها حقائق كلية ثابتة فيتعرف عليها الإنسان بعقله من خلال البراهين العقلية.

وبعضها حقائق جزئية غائبة عنا كالحوادث التاريخية السابقة فلا سبيل إليها إلا من خلال النقل والنص التاريخي. أما إذا كانت حقائق اعتبارية وضعية كلية كانت أم جزئية فلا بد من الرجوع فيها إلى الواضع والمقنن لمعرفتها فإن كان الواضع هو البشر فيتوصل إليها من خلال النقل عنه، وإن كان الواضع والمقنن هو الشرع المقدس فلا سبيل إليها إلا من خلال الوحي المنقول إلينا بواسطة المعصوم أو من ينقل لنا ذلك عن المعصوم عليه السلام.

وبذلك يتبين لنا أن الإنسان يتعرف على الأشياء والموجودات من خلال وسائل معرفية معينة وهي الحس والتجربة والعقل والنقل. ولكل واحدة من هذه الوسائل قانونها الذي يحصنها عن الخطأ ويلزمها طريق الصواب.

وعليه فتنوع المناهج المعرفية ضرورة معرفية لم تنشأ من فراغ، بل دعت إليها الحاجة للارتباط بجميع ما يحيط بنا والتعرف عليه.

فالحس عنصر مهم في بناء الثقافة وصرح المعرفة بجميع أقسامه، وفقد أي حاسة يعتبر خسارة فادحة في البناء الثقافي، وقد عبّر عن ذلك أرسطو في تعليمه: مَن فقد حسا فقد علما.

وهكذا لا يمكن الاستغناء عن التجربة؛ لأن محور البناء المعرفي في اكتشاف القوانين العامة التي تحكم عالم الطبيعة وكيفية تسخيرها في خدمة الإنسان.

ويقوم النص بتزويد الإنسان بالحوادث والقوانين التي غابت عن الإنسان ولا يمكن أن يصل إليها بعقله أو حواسه بسبب البعد الزماني أو المكاني.

وبذلك تكون المناهج المعرفية كالحواس الخمسة لكل وظيفته التي لا يقوم بها غيره من المناهج، وكما قيل إن من فقد حسا فقد علما، فيمكن أن يقال: من فقد منهجا معرفيا فقد علما.

وبعد حصول هذا الكم من المعارف لدى العقل، يبدأ العقل بالجمع والاستنتاج من خلال عملية دقيقة تسمى بعملية التفكير، وهذه العملية لا بد أن تكون هي الأخرى لها قانونها الذي يعصمها من الخطأ وإلا ضاعت الجهود وصودرت الطاقات، وذلك القانون هو ما يسمى بعلم المنطق.

فمن أراد أن يتصور الأشياء بشكل صحيح عليه أن يستفيد من قانون التعريف من حيث الصورة والمادة، كما أن من أن أراد أن يستدل على فكرة ما لإثباتها أو نفيها فعليه أن يعتمد على قوانين الاستدلال الصحيح من جهة المادة والصورة أيضا. والتعريف والاستدلال هو المسمى بالتفكير، فإن الإنسان يفكر ليتعرف على حقيقة الشيء أو للاستدلال على فكرة ما. وقد بيّن العلماء قوانين التفكير في جنبته التعريفية والاستدلالية في علم المنطق؛ ولذا سمي بعاصم التفكير، لأنه يعصم الفكر عندما يسير على وفق قوانينه.

ولكن مما يؤسف له أن مناهجنا الدراسية ومجالسنا وندواتنا ومؤتمراتنا ـ وإن كانت لها فوائدها التي لا تنكر ـ لم تأخذ البناء الثقافي وخصائصه وشروطه بعين الاعتبار منذ أمد بعيد؛ ولعله هو السبب الرئيس في هذا التراجع الحضاري الملحوظ ـ والذي لا يشك فيه أحد ـ الذي منيت به أمتنا ومجتمعنا. فلم نبني ثقافة المجتمع على أساس أصول التفكير الصحيح، ولم نربه على الاستفادة من جميع المناهج المعرفية بشروطها، وأين يمكن الاستفادة من كل منهج، فهل يمكن الاستفادة من الحس في الأمور الخارجة عن حريمه، أم هل يمكن الاستفادة من النقل في القضايا التجريبية، وهكذا هل يمكن الاستفادة من العقل في القضايا النقلية؟! كل هذا بقي مغفولا عنه في ثقافتنا، فبقينا كسعفة في مهب الريح يأخذنا الشرق تارة والغرب أخرى؛ لانعدام الحصانة الفكرية والمعرفية والثقافية.

النتائج

في نهاية هذا البحث أود أن أسجل بعض النتائج التي يهدف إليها البحث:

١. أنّ سبب التراجع الفكري والمعنوي في البلدان الإسلامية عمّا كانت عليه في زمن النبي المصطفى صلى الله عليه وآله يرجع إلى عدم التخطيط لمنهج يتكفل بالأخذ بيد الجيل المسلم نحو التكامل في هذا المجال.

٢. سبب التأخر التكنولوجي الذي منيت به الأمة هو خلو المناهج من بث روح الإبداع، وملؤها بروح التقليد، بل الانبهار بحضارة الغرب.

٣. ضرورة دراسة طرق التفكير ومناهجه، وتنزيلها في مناهج الدراسة منذ المراحل الأولى؛ ليتخلص المجتمع من المشاكل المتقدمة.

٤. تربية الجيل على أسس الشخصية المستقيمة المتزنة المنسجمة مع نفسها؛ لتتمكن من الانسجام مع الغير، من خلال التوفيق والترابط بين العقيدة والسلوك. ولا يكون ذلك إلا من خلال بناء رؤية كونية سليمة تبتني على قواعد متّفق عليها ـ لا من خلال التلقين ـ، بحيث ينتمي إليها وتكون جزءا من ذاته وشخصيته لا يمكن التنازل عنها.

٥. تَربية الجيل على الالتزام بالقانون الفكري والسلوكي على حد سواء؛ لنحصل على مجتمع آمن فكريا وسلوكيا.

التوصيات

في الختام نوصي المفكرين والباحثين الذين ينأون بأنفسهم عن الأنانية، ويزينونها بحب الخير لأمتهم، ويرغبون في الاشتراك بإصلاحها أن يسخّروا طاقاتهم وأوقات فراغهم بالبحث عن أفضل الطرق لبناء صرح ثقافي معرفي قائم على العلم وحب الخير على أسس علمية، وتشييده في وسط الأمة لتستعيد رونقها العلمي وصدارتها الحضارية.

هوامش البحث

١ـ ابن منظور، لسان العرب: ٢ / ٣٨٣ .

٢ـ الفراهيدي، الخليل بن أحمد، العين، ج٣، ص٣٩٢.

٣ـ الحربي، إبراهيم بن إسحاق، غريب الحديث، ج٢، ص٥٠٣.

٤ـ الصحاح، الجوهري، ج٢، ص٧٨٣.

٥ـ معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا، ج٤، ص٤٤٦.

٦ـ لسان العرب، ابن منظور، ج٥، ص٦٥. وقريب منه في القاموس المحيط للفيروز آبادي، ج٢، ص١١١.

٧ـ المظفر، محمد رضا، المنطق، ص٢٤.

٨ـ النظرات حول الإعداد الروحي، الشيخ حسن معن، ص٩٩.

٩ـ الفراهيدي، الخليل بن أحمد، العين، ج٥، ص١٣٩.

١٠ـ الجوهري، الصحاح، ج٤، ص١٣٣٤.

١١ـ بن زكريا، أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج١، ص٣٨٣.

١٢ـ أميل دور كايم، قواعد المنهج في علم الاجتماع، ترجمة محمود قاسم، القاهرة، ١٩٥٠، ص٤١.

قائمة المصادر و المراجع

١. تحصيل السعادة، للفارابي.

٢. آراء أهل المدينة الفاضلة، للفارابي.

٣. أصول المعرفة والمنهج العقلي، للدكتور أيمن المصري.

٤. كيف نبدأ مسيرتنا للخروج من محنتنا، للدكتور أيمن المصري.

٥. أهمية المناهج التربوية، الدكتور غازي مفلح.

٦. تطوير المناهج الدراسية، محمد أحمد شوق.

٧. الأسس الاجتماعية للتربية، محمد لبيب النجيحي.

٨. قواعد المنهج في علم الاجتماع، أميل دور كايم، ترجمة محمود قاسم.

٩. كتاب المنطق، للشيخ محمد رضا المظفر.

١٠. النظرات حول الإعداد الروحي، للشيخ حسن معن.

١١. غريب الحديث، لإبراهيم بن إسحاق الحربي.

١٢. لسان العرب، لابن منظور.

١٣. كتاب العين، للخليل بن أحمد الفراهيدي.

١٤. الصحاح، للجوهري.
١٥. معجم مقاييس اللغة، لابن زكريا.
١٦. القاموس المحيط، للفيروز آبادي.